الدهشة والصمت الذي قوبلت به هذه « المنهجية الجديدة » ، الا ان مسعود ظاهر ، قد اماط اللثام مؤخرا عن حقيقة ذلك ، وانتقد بشكل عام القائلين بها ، وموضحا « ان الكلام عن جماهير شعبية دون تحديد علمي لهذه الجماهير في الزمان والمكان والموقع ، وفي علاقات الانتاج ، لن يقود الى اكتشاف «منهجية» جديدة » (٢) ، لذلك فقد اكد في نهاية مقاله على المنهجية التي يقترحها — وهي ليست جديدة كما يقول — بأنها التي تستند الى « جماهير القوى المنتجة المسحوقة » (٣) · وهكذا نجد انه ، رغم المحاولة الجادة للتدقيق والتوضيح ، الا انه لم يعلن بالضبط المنهجية العلمية المحددة ، والمتعارف عليها في الكتابة العلمية للتاريخ ، وهي المنهجية المادية التاريخية ·

ان بحثا جديا وهادفا ، ككتاب حوراني ، يدخل طرفا في الصراع الذي اشرنا اليه ، كان يفترض أن يحدد ، منذ البدء ، وبالضبط ، اتباعه لمنهجية المادية التاريخية ، التي استخدمها فعلا والى حد كبير في دراسته ، وبصرف النظر عن طبيعة هذا الاستخدام ·

الملاحظة الثانية : لقد اهمل الكاتب ، وبشكل واضح نطاق دراسته · اي انه لم يحدد موقعها ومكانتها في علم التاريخ الاجتماعي والاقتصادي الذي ناقش ودرس ، وما يزال ، اوضاع وتاريخ بلدان مشابهة لشرق الاردن ، وهي البلدان « المتعددة الانماط الاقتصادية » او التي اصطلح على تسميتها ببلدان « العالم الثالث » · لقد انطلق هاني من القول ، ان التطور الاقتصادي والاجتماعي في الاردن هو « فريد نوعا » عن سمات التطور الكولونيالي في غالبية الاقطار التابعة والمتخلفة » · ومع اننا نوافق تماما على ذلك ، من حيث المبدأ ، حيث لكل بلد خصائصه ومميزاته المحددة ، — وهي في الاردن اكثر خصوصية ، الا اننا لا نوافق على عدم ادراجه ضمن مجموعة تلك الدول التي خضعت للسيطرة الاستعمارية المباشرة او غير المباشرة ، وتميزت بماض تاريخي متميز، فعكست بالتالي مظاهر متشابهة وطرق تطور متقاربة · ان التأكيد على ذلك ، ولفت نظر القارىء اليه ، يساعد في تحديد نطاق قضية البحث المطروحة امامه، ويسهل بالتالي ، عملية احالته المستمرة الى الظاهرات المشابهة او التأشير على ما هو خاص وجديد ومتميز وفريد في الوضع الاردني ، واعتبار ذلك اضافة ومساهمة جديدة في التوجه الواسع ، على الصعيد العالمي ، لدراسة قضايا وخصائص ومشكلات بلدان « العالم الثالث » اي « البلدان ذات الانماط المتعددة » وبصدد ذلك كتب ماركس بوضوح مؤكدا « ان الاحداث متشابهة الى حد مدهش ، ولكنها اذ تجري في وسط تاريخي مختلف تؤدي الى نتائج متباينة تماما · ومن السهل ايجاد المفتاح لفهم هذه الظاهرة اذا ما درسنا كل واحدة من عمليات التطور على حدة ثم قمنا بمقارنتها مع بعضها البعض » (٤) · ان ادارة الظهر لنطاق البحث وابرز نظرياته ، وعدم وضع اسس المقارنة للسمات والمظاهر المتشابهة ، اوقع الكاتب

---

(٢) — مسعود ظاهر ، **مقالة في مجلة « الفكر العربي »** ، العدد الثالث ، اب ١٩٧٨ ، ص ٩٧ ·

(٣) — **المصدر نفسه** ، ص ٩٧ ·

(٤) — « ارشيف ماركس ، انجلز » ، الجزء الاول · نقلا عن « **اسيا تختار** » ، دار التقدم ، موسكو ، ص ٧٥ — ٢٩ ·